

دروب أدب الرحلة الإماراتي

الخليج · 23 يوليو 2011

أصبح السفر خارج الوطن جزءاً من العادات الاجتماعية الإماراتية، وخاصة سفر الإجازة الصيفية، فخلال هذا الموسم من السنة تسافر الأسر والأفراد إلى مختلف بلدان العالم، في القارات الخمس، يستكشفون مناطق جديدة ويتعرفون إلى مناخات متنوعة جغرافياً وثقافات وأجناس بشرية مختلفة، ويأخذ ذلك التلامس مع الآخر بعداً آخر لدى المثقفين والأدباء والفنانين بوصفه حافزاً للخيال ومدعاة للإنتاج، يندعش المبدعون أمام صيغ ثقافية واجتماعية وشواهد تاريخية ومشاهد طبيعية لم يألفوها ليتحرك ماء الإبداع سائلاً رقيقاً، ويجري القلم أو الريشة أو العدسة أو غيرها من أدوات الفنان لتؤلف فناً جديداً أصبح اليوم يتزايد بشكل يجعله مدونة بكاملها في جميع فروع الفن حتى إنه ليتمكن أن يطلق عليها الفن المسافر، وهي من التشعب في الأدب والرسم والتصوير والفيديو غيرها، بحيث تصعب الإحاطة بها في مقالة، وقد ركزنا هنا على النظر إلى الجانب السرد في هذه الظاهرة الثقافية، انطلاقاً من ثلاث تجارب لكتاب إماراتيين هم عبدالعزيز المسلم ومحمد أحمد السويدي وعبدالله السعدي، لنستكشف توجهات كل واحد منهم في تعامله مع المكان ومثيراته .

يركز عبد العزيز المسلم في كتابه مدائن الريح على وصف المكان وتوثيقه باعتباره مظهراً جمالياً وتحفة فنية ومعلماً أثرياً، فكان يصفه ويوثق له تاريخياً، لذلك جمع كتابه بين متعة نقل جمالية المكان وفائدة نقل المعلومة التاريخية المتعلقة به، ويعود اهتمام المسلم بأدب الرحلات إلى قراءته المبكرة لكتاب رحلة ابن بطوطة تحفة النظر في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار الذي يعد أقدم مرجع وأكمله في تاريخ الرحلات جمع فيه ذلك الرحالة كل عجيبة وغريبة وشاردة واردة من أخبار البلدان وغرائبها وعادات الشعوب في البلدان التي زارها في رحلته التي استغرقت سبعة وعشرين عاماً زار فيها كل بلاد الإسلام في تلك الفترة، وقد شددت تلك الرحلة المسلم وظلت حاضرة في ذهنه وحين بدأ يسافر في العالم خطر له أن يسجل هو الآخر مشاهداته وانطباعاته عن المدن العديدة التي زارها في كتاب سماه مدائن الريح واتبع في ذلك أسلوباً تسجيلياً كأنه مصور يوثق بعدسته كل ما يراه، فكان يلتقط المشاهد والتفاصيل الدقيقة التي قد لا يقف عندها الكثيرون، ويفسر تلك المشاهدات بالعودة إلى تاريخ المكان .

كانت للكاتب رحلة قديمة لم يتضمنها الكتاب، ولكنها حفرت لها مكاناً مميزاً في ذاكرته، وجعلته يستعيد عبرها في كل رحلة وفي كل مدينة، تلك كانت رحلته إلى مدينة خورفكان التابعة لإمارة الشارقة حين كان صبيّاً، في مطلع السبعينات من القرن الماضي، رحلة ظلت تفاصيلها تتجدد مع تجدد الرحلات في شرق العالم وغربه، لأن الحب الأول لا ينسى أبداً كما يقول الكاتب .

بدلاً من التسلسل التاريخي اتبع المسلم التسلسل الجغرافي للمدن التي زارها حسب القارات بادئاً بآسيا، التي افتتحها برحلات لبنان، تلك الأرض التي كانت من أهم البلدان التي عرفها أهل الإمارات، متوقفاً عند محطات بيروت، صور، طرابلس الشرق، حيث قدم تعريفاً وافياً عن كل تلك المحطات، من ماضيها إلى حاضرها، مستعرضاً أهم المعالم، من جامعات، ومتاحف، ومزارات سياحية، وعلى ذلك المنوال سار الكاتب في وقفات عند بقية المدن التي تناولها الكتاب، ثم انتقل إلى عمّان عاصمة المملكة الأردنية، التي يعتبرها متحفاً مفتوحاً كما هي الأردن بأكملها، ومنها إلى بانكوك أرض الابتسامات عاصمة مملكة تايلاند، التي تأسر الإنسان فيها طيبة الناس، كما يأسره منظر الأطفال بائعي الزهور في شوارع بانكوك الجميلة . ثم رسم لوحات وصفية لبلاد الهند بلاد السحر والألوان والذهب والبهارات .

يشعر القارئ وكأنه في تلك الأجواء، بما يسرده من تفاصيل عن تلك البلاد العجيبة المترامية، وجاء على ذكر مما دونه ابن بطوطة في الهند، ثم عاد إلى إفريقيا من يوابتها العربية (القاهرة) عاصمة النيل وكبرى مدن الوطن العربي، التي زارها لأول مرة سنة 1988 ثم أدمن زيارتها بعد ذلك، وفي القاهرة

يتوقف بعد الاستعراض التاريخي عند المساجد ودور الكتب وغيرها من المعالم الخالدة، ومنها إلى (زنجبار) التي ارتبط اسمها عند أهل الخليج بالسحر، سحر الأحلام والخيال، حيث عالم صغير يجمع عدداً هائلاً من اللغات والأديان والأعراق .

ثم إلى بوابة العرب الغربية، إلى المملكة المغربية، حيث يمر على أربع من مدنها العريقة هي الدار البيضاء، الرباط، مراكش، الصويرة، وفي تلك المدن يأخذنا الكاتب كالعادة في جولة تاريخية تعريفية، تليها جولة معاصرة في ساحاتها ومعالمها البارزة، من قبيل ساحة جامع الفناء بمراكش، أول ساحة في العالم العربي تعتمد منظمة اليونسكو باعتبارها جزءاً مهماً من التراث الإنساني غير المادي، وهي ساحة فريدة تجتمع فيها النقائض والعجائب والفنون والحرف .

ومن المغرب إلى العاصمة الفرنسية باريس التي استطاع الفرنسيون أن يجعلوا منها أجمل مدينة في العالم من دون منازع، والتي تحتضن معهد العالم العربي لتعميق التبادل الثقافي بين فرنسا والعالم العربي، وتحتضن جامعة السوربون العريقة، إلى غيرها من المعالم .

أما الشاعر محمد أحمد السويدي فهو وإن كان يعطي للمكان مكانة في أسفاره التي دونها إلا أن تركيزه انصب بالدرجة الأولى على إقامة حوار مع كبار المفكرين الذين تتبع خطواتهم في تلك الأماكن التي زارها، وعلاقة المكان بالمبدعين من أدباء وفنانين ومخترعين ممن كانت لهم إسهامات مشهودة في تاريخ البشرية، فكانت رحلاته درساً في الإبداع واستذكراً للعطاء الإنساني، ونشدانا لقيمة التنوع والاختلاف في الثقافة والرؤية بين البشر، ومنها رحلة إلى إيطاليا: هكذا حدثني غوته، وتارا تحل جدائلها: رحلة في لندن، ورحلة إسبانيا، ورحلة أصفهان، ورحلة أسوان والأقصر، ورحلة متحف آثار الثورة الصناعية في لندن، وللسويدي مع أدب الرحلات علاقة خاصة فهو مؤسس مشروع ارتياد الآفاق للرحلات الجغرافية، الذي يسعى إلى تدوين ونشر كل ما كتبه العرب في هذا الصدد، وجائزة ابن بطوطة لأدب الرحلات، كما أسس ويرعى من خلال دارة السويدي الثقافية العديد من المشاريع الثقافية العربية العملاقة .

كان دافع السويدي في رحلته إلى إيطاليا عن إعجابه بالشاعر الألماني العظيم غوته وما كتبه عن إيطاليا التي زارها سنة 1786 وكتب عنه عملاً جليلاً هو رحلة إلى إيطاليا، فأراد أن يقتفي أثره هناك، فكانت زيارة السويدي الأولى لها سنة 2005 ثم توالى الزيارات بعد ذلك، وبدأ الكتابة عنها بمقالة بعنوان هكذا حدثني غوته روى فيها تجربته في تعقبه في العاصمة الإيطالية روما التي أحبها غوته كثيراً، وقد استصحب السويدي معه في رحلته تلك عدداً من كتب التاريخ والشعر والأدب لتكون عوناً له على فهم معالم المكان ولتزوده بالمعلومات التي سيدونها عن تاريخ أولئك المبدعين والمفكرين منها إلياذة هوميروس، وكتاب التحولات لأوفيد، وقصة الحضارة لول ديورانت .

في إيطاليا زار السويدي ما يقارب أربعين مدينة وقرية احتضنت كلها مشاهير في سماء الفن والأدب والفكر ممن صنعوا المجد الثقافي للإمبراطورية الرومانية وتركوا تاريخاً عظيماً للبشرية فزار ميلانو مدينة دافنشي ولودفيكو سفورزا، ومنها إلى بحيرة كومو مروراً فيرونا مدينة روميو وجوليت بطل رائعة شكسبير روميو وجوليت ثم بحيرة غاردا، حيث المتحف الذي أقيم تكريماً للشاعر غوته، ثم البندقية، والريفيرا الإيطالية، وكيانتي، بولونا، فلورنسا، بيزا، وغيرها وهو في كل ذلك يتوقف عند الأسماء الكبيرة في تاريخ أوروبا، ويقدم المعارف المرتبطة بالمكان من ناحية المعمار والموسيقى والتاريخ والآداب والعلوم والتشكيل والمائدة والعمارة والأزياء، ففي قرية سولموني يتحدث عن شاعر روما القديم أوفيد ناسو الذي ولد فيها، سنة 34 قبل الميلاد، واشتهر بكتبه عن الحب ويعد كتابه التحولات أكثر الكتب تأثيراً في الثقافة والشعر الأوروبي حيث ترجم إلى اللغات الأوروبية الحديثة منذ القرن السادس عشر، وفي مدينة ميلانو توقف عند ليوناردو دا فينشي (1452-1519م)، صاحب لوحة الموناليزا أو (الجوكاندا)، وأشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق، ذلك العبقرى المتعدد المواهب ما بين الرسم والنحت والعلم، الذي كانت مكتشفاته وفنونه نتيجة شغفه الدائم بالمعرفة والبحث العملي، وترك أثراً عميقاً في مدارس الفن في إيطاليا، كما تحدث عن علاقة دافينشي بالأمير لودفيكو، والنهاية التراجيدية لهذا الأمير، وعن لوحة العشاء الأخير في قاعة الطعام في مبنى كنيسة سانتا ماريا دل غرادسي، والسنوات الثلاث التي قضاها دا فينشي لإنجاز الموناليزا التي قدر لها أن تكون أعظم عمل أنتجه عصر النهضة .

الفنان التشكيلي عبد الله محمد السعدي له هو الآخر كتاب في السفر دون فيه رحلة قام بها إلى النمسا في إطار في يوليو من عام 2008 ضمن إطار تبادل ثقافي بين إمارة الشارقة ووزارة الثقافة في النمسا، وأطلق على الكتاب اسم مغيندا التي تعني الغداء، وقد رأى أن أصل هذه الكلمة عربي .

ويظهر اهتمام السعدي بكل شيء منذ البداية حين وصف الظروف من حوله وقت إقلاع الطائرة: 30:02 في هذا الوقت حلت بنا الطائرة النمساوية، رقم مقعدي (س24)، تجلس بجانبني امرأة، وعند النافذة رجل، كان الوقت متأخراً، حاولت أن أنام، نمت قليلاً على طول الليل، المسافة حوالي ست ساعات من وإلى فيينا .

<https://www.alkhaleej.ae/%D9%85%D9%84%D8%AD%D9%82/%D8%AF%D8%B1%D9%88%D8%A8-%D8%A3%D8%AF%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D9%8A>

المصدر الأصلي: تاريخ حفظ النسخة: 2026-10-12 — حُفِظَت لِأَغْرَاضِ الأَرشِفَةِ وَالتَّوْثِيقِ.